



الكتب الكيميائية ينتمى إلى زمن وإلى بيئة مدرسية
بمختلفان كل الاختلاف عن هؤلاء الذين ألفوا الكتب
الطبية والفنية والرياضية والإلهية ؟

من الجلى الواضح أن ذلك الذى يستطيع الأخذ بيدنا
إنما هو البحث خلال المخطوطات التى متر عليها أخيراً، وإنى لوفوق
إذ استطعت الحصول بمساعدة الأستاذ ماكس مايرهف Max
Mayerhof لا على صور للنصوص العربية للسبعين كتاباً التى ذكرها
ابن النديم غصب ، بل أيضاً على بعض النصوص غير المعروفة
ككتاب « السموم » و « الملك النوحى » وغيرها من المؤلفات
التي جمعت لأجل « مجمع برلين للدراسات الطبيعية »

وهذه المؤلفات قد فتحت مدى أوسع في الأبحاث في هذا
الموضوع لم يتحقق من قبل ، فكتاب السموم أصبح اليوم أمنع
من أن يناله هجوم ، وهو يبين مقدار معرفة جابر الطبية ، أما النصوص
المتعددة من كتاب « الخواص النوعية » فيمكن للنظر إليها
على أنها مقتطفات من كتب مختلفة المقرر أن جابر كتبها في
هذا الموضوع ، ويمكن أن تقول إن كثيراً من البحث والاجتهاد
يحتاج إليه ذلك الذى يريد الكشف عن حقيقة هذه المؤلفات
والإجابة على السؤال الآتي : كيف جاءت مؤلفي هذه الكتب فكرة
نسبة هذه المؤلفات إلى الإمام جعفر الصادق^(١) أو تلميذه للدعي
جابر ... تقول إن الإجابة على هذا السؤال تفهقت كثيراً ...
وأولى الملاحظات التي يمكن استنتاجها من نتائج أبحاث

مجمع برلين في النصوص العديدة هي : أن ارتباط الحقائق المختصة
بالكيمياء و علم البحث عن الصناعات technologie والطب لازم
كما هو في نفسه ولكنه لا يبين ولا يقدر للفرض الأخير لهذا
الأدب ؛ إذ أن كل التفاصيل العملية إنما تتحرك في اتجاه مذهبي
واحد ، وأن المتأخرين هم الذين أعطوها المعنى والتحقق . والسبب
للفلسفي هو نقطة البدء في هذه المؤلفات كلها ، وهذا السبب
للفلسفي إنما ترجع إليه قيمتها ، وكثيراً ما كان يتكرر بشكل
يقيني في هذه الأعمال أن العلم لا يمكن أن يكون إلا إذا كانت
هناك نظرية خاصة يضمها نصب عينيه . وهذه المشكلة تمت لأول

(١) جعفر الصادق إمام السنة عاش على ما نعتقد في أواخر القرن
الأول وأوائل الثاني للهجرة ، ونظن أنه مارس الصنعة أسمى الكيمياء ،
ولقد كان حلاوة على ذلك منكما شيبا ، صوفيا ، زمبا دينيا . كما يقال
إن جابر بن حيان تلمذ عليه في الكيمياء .

الوضع الحقيقي للمشكلة

جابر بن حيان للأستاذ أحمد زكي صالح

تقرير الأستاذ ريسكا^(١) Ruska

بتسائل الأستاذ ريسكا : كيف وأين نظمت وألفت هذه الكتب
المنسوبة إلى جابر ؟ هل هي أعمال فرد واحد أم من أعمال مدرسة ؟
هل حدث تأليفها وتطورها وتقدمها في مدى وقت قصير أم انتشر
على بساط قرن كامل ؟ كل هذه أسئلة لا زالت أجوبتها غامضة ،
بل قل لا زالت غارقة في بحر من الغموض والإبهام
وتلك النصوص التي نشرت بإشراف الأستاذ هوداس^(٢)
لا تكفي تماماً كي نصدر حكماً صحيحاً على مميزات أدب جابر بن حيان
الكيميائي

ويجب أن أعتز أن « كتاب الرحمة » بمحاوراته المضحكة
بين جابر بن حيان وجعفر الصادق ما هو في الحقيقة إلا قصة
ملفقة ، و « كتاب الملك » يفتنى سر نفسه بنفسه حيناً يرجع
أسله إلى جعفر الصادق ، وبعض النتائج يمكن استنتاجها في شأن
« كتاب الموازين » لأنه عنوانات بعض أعمال أرسطو في المنطق
التي ابتدأت معرفة العالم الإسلامي لها بعد أواخر القرن التاسع
من الميلاد. ولكن إذا سلطنا بصحة نقد هذه الكتب الثلاثة، فهل
يؤثر هذا بقليل أو كثير في المشكلة ككل ؟ وبالأحرى هل
يمكن أن تفصل المؤلفات الكيميائية مسلمين بأنها من عمل جابر
من قائمة الفهرست الثانية^(٣) ؟ أليس من المقبول أن مؤلف

(١) نشرت هذه المخطوطات بإشراف هوداس في كتاب الأستاذ برتلو
Berthelot: Traité d'alchimie arabe

(٢) Ruska. J. : The history of Jabir Problem Islamic
culture 1937 P. 303 — 312

(٣) هذه القائمة ذكر فيها ابن النديم أعمال جابر في غير الكيمياء
كالم الإلهي ، والطب ، والفلسفة ، والمنطق ... الخ

الموازنين، لا يحتاج لكثير مناهة لتفنيده، إذ أن رسكا يناول الموضوع من ناحية سلبية بجملة، مثل الأستاذ رسكا في ذلك كتل اثنين يتحاوران، بمد أن عرض أحدهما رأيه قال له الآخر كلا إنك غطىء وزك وعضى في طريقه، فهو لم يبين له لماذا هو غطىء وما هو صواب هذا الخطأ، كذا الحلال في نقد رسكا لهذه المؤلفات الثلاثة، فهو يقول إنها ليست لجابر بن حيان، فهل ينتظر منا الأستاذ رسكا أن نحى هاماتنا لرأيه سامعين طائمين غتارين؟ وحتى هبني سلئت بصحة هذا النقد للضعيف فأى قيمة تكون له في إخراج هذه الكتب الثلاثة عن دائرة مؤلفات جابر الكيميائية وهي تبلغ سبعين مؤلفاً؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأستاذ رسكا في القسم الثانى من كلامه يتحو نحو الجدليين، إذ أنه يلتجئ إلى أسلوبهم وأعنى بذلك أسلوب «المقول وغير المقول».

إن الأستاذ رسكا عالم له أسلوب العلماء وطبعم وروحهم ونحن لذلك نسمو به عن أسلوب الجدل، إذ أن العلم ليس أمامه معقول وغير معقول، إنما أمامه حقائق يدلم بها، أو لا يدلم بها، حقائق يبرهن على وجودها أو يبرهن على عدم وجودها، فالقول بأنه من المقول أن تفصل كتب جابر الكيميائية عن غيرها قضية كاذبة علمياً، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: هل نسى الأستاذ رسكا أن التفكير الإسلامى كان في هذه المرحلة الزمانية أو الفكرية تفكيراً عاماً شاء لأى تفكير encyclopedique، وأن التخصص في التفكير وفى البحث لم يعرف في الإسلام إلا بعد ذلك بقرن من الزمان على الأقل؟؟

أما القسم الثالث من رأيه وهو تفسير الانتحال لجابر بن حيان فهو يستميره من أبحاث مجمع برلين، ويستركه الآن ونرض هذه الصورة بشكل أوسع لدى الأستاذ كراوس P. Kraus الذى كان مساعداً بهذا المجمع إذ ذاك

رأى الأستاذ كراوس P. Kraus^(١)

يرى الأستاذ كراوس أن هذا الأدب العظيم يبين لنا كل ما درس في الإسلام من العلم اليونانى لا يمكن أن يكون بأية حال من عمل مؤلف واحد، ولا يمكن كذلك أن يصعد إلى النصف الثانى من القرن الثانى من الهجرة، إذ أن جميع الظواهر التاريخية تدلنا على أن هذا الشكل corpus كان من إنتاج أخريات القرن

وهة لمشكلة السببية. وتبماً لذلك فإن مفهوم «اليزان» الذى يمد من أهم مميزات مؤلفات جابر بن حيان، ونظرية الخصائص النوعية للأشياء المتلفة بمدى التحول الكيمىائى يتمدان على أسس عديدة دقيقة

وربما لا يبدو هذا في الكيمياء الحديثة شيئاً يذكر، ولكن السجيب حقاً هو ذلك التيار الذى واظب عليه العقل البشرى، واجتهاده في تبيان أن القانون الطبيعى إنما يعتمد في أساسه على أسس عديدة ثابتة. ونحن أصبحنا اليوم، بمد هذه الأبحاث، نستقد أنه نجح تماماً فيما كان يصبو إليه؛ فإن قانون الأعداد هذا في نظر جابر بن حيان يضع كل شيء في الوضع الحقيقى له في العالم ودراسة بعض النصوص التى ذكرت آنفاً تقودنا خطوة أخرى نحو الفرض الفلسفى للبحث لهذه الأعمال. أقول إن هذه الدراسة تقودنا خطوة أخرى حين تطلنا على الصلات والملاقات بين هذا الفرض الفلسفى وبين النظريات الجابرية في العلم الإلهى التى هى الفرض والناية النهائية الحقيقية لهذا الأدب الجابرى

فالنظريات العلمية التى اجتوت عليها هذه المؤلفات قيل إنها ليست شيئاً آخر غير معلومات محمد «صلى الله عليه وسلم» و«على ابن أبى طالب» وأستاذ جابر «جعفر الصادق»، وهذه الخرافة تذهب إلى حد أنها تفسر بعض نصوص القرآن على ضوء الكيمياء كما ينسب لى بعض المحاضرات في موضوعات كيميائية، وفي بعض هذه النصوص يظهر بعض المذاهب التى تتفق تماماً وما تقول به فرقة الاسماعيلية^(١) من الناحيتين الفلسفية والعملية، ومن ثناباً أفكار هذه المدرسة الدينية التى رئيسها وإمامها وأستاذها الإمام جعفر، يمكن أن يفهم المعنى للكاهن في نظريات جابر بن حيان، وهذه الحقيقة تثبت عرضاً أى في كل هذه المؤلفات إنما ترجع أصولها إلى النصف الأخير من القرن التاسع أو النصف الأول من القرن العاشر للميلاد أى القرنين الثالث والرابع من الهجرة، أو قل في ذلك الوقت الذى بانغ فيه الإسلام الذروة في هضم الفكر اليونانى، وهكذا يمكن أن ترد تلك الثروة العلمية والفكرية التى توجد في مؤلفات جابر بن حيان.

صافى رأى الأستاذ رسكا

الأستاذ رسكا في تقده لكتب جابر الثلاثة: الزحة، الملك،

(١) الاسماعيلية فرقة شيعية وجدت في القرن الرابع الهجرى، ولا زالت موجودة إلى اليوم في الهند

(١) انظر ملحق دائرة المعارف الاسلامية: Ency. de l'isl. article: D. Jabér par P. Kraus 1934

الثالث المجري وأوائل القرن الرابع

وإن كتابات جابر بن حيان لتضع لنا باديء ذي بدء أساسين مشكلة دينية تاريخية، فكما أن الكيمائيين القدماء قد أجهوا إلى الأجنوزية المسيحية^(١) La gnose chrétienne كذلك جابر يقدم في مؤلفاته العلمية أجنوزية الإسلام، ولم تكن آراء جابر ابن حيان كذلك الآراء الساذجة الأولية التي وجدت في محيط الشيعية في القرن الثاني من الهجرة، إنما كانت أقرب إلى تلك التي كان يتردد صداها في محيط غلاة الشيعة في القرن الثالث من هجرة الرسول. وهذه الآراء كانت ذات صبغة سياسية وثورية خطيرة عرضت الإسلام نفسه للخطر، إذ أن جابراً أعلن قرب قيام الإمام المنتظر الذي سيظل حكم الإسلام ويحمل عمل القرآن نور العلم والفلسفة الإغريقيين، وكان عمل عرض هذه الآراء هو نظريات جابر في مؤلفاته حيث عرض هذا الوحي الروحي الخالص الجديد والذي أوحى به الأئمة للملويين

ووجهة نظر جابر بن حيان في العلم الإلهي تقترب من القرامطة الذين ابتدأوا يلبيون دورهم في العالم الإسلامي منذ سنة ٢٦٠ هـ. ودرجات العلم مقسمة عنده نفس التقسيم الموجود عند القرامطة والاسماعيلية

ونظرية امتداد الأمامية قد تقدمت بنفس الخطوات التي تقدمت بها الأمامية، فالأماميون يقسمون تاريخ العالم من حيث الوحي إلى مراحل سبع يكون آخرها بعث الإمام الجابري، وعلى ذلك فإن الأئمة الذين تبعوا علياً، حتى الإمام القائم الجديد يكون عددهم سبعة وهم علي التتالي: الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعلي بن الحسين بن محمد الباقر وجعفر الصادق وإسماعيل الإمام المنتظر أو القائم. ونحن نلاحظ أن جابراً في تصادده للأئمة على عكس القرامطة والاسماعيلية لم يعتبر علياً إماماً من هؤلاء السبعة، وأن هذا السانيت، التي يضمون التاتيك هو الذي يكون به تجسد الأئمة السبعة الأرضي، وفي هذه النظرية يقترب جابر من تلك التي يقول بها النصيرية^(٢) الذين يعتقدون أن هناك ثلاثة أئمة: «ع» أي علي، «م» أي محمد «س» أي سليمان،

والسبعين في نظر جابر سابقة ومقدمة على الميم، وفي هذا الذهب يسمى الإمام جعفر «بالإمام المجيد» أو «اليتيم» التي له تفضيل مباشر على «ع» كما أن له الحظوة على «م»، «س». وهنا يقبل جابر القول بنظرية التجمد empsychose والتناسخ والأدوار، والإكرار، والنسخ، والتمسخ، والمسخ.

وإن جابراً يعلن على رؤس الأشهاد أن علمه إنما هو وحي أستاذه جعفر الصادق، وإلى هذا «النبع من الحكمة» même de sagesse ترجع كل معرفة جابر، وما هو إلا جامع وملحن على مؤلفات أستاذه. وربما كان ذلك راجعاً إلى أن جابراً نفسه يأتي في التسلسل الديني في مرتبة تلي مرتبة جعفر الصادق مباشرة، أضف إلى ذلك بعض أستاذه مثل حارث سميرت، أرهون الحمار، جعفر البرهكي. ولكن نحن نرى أن كل هذه التأكيدات ما هي إلا إفتراءات باطلة إذ أنها متناقضة تماماً مع ما كتبه جابر نفسه في مؤلفاته. وعلى ذلك فإن تلميذ جعفر الصادق المسمى جابر بن حيان يظهر أنه محض اختراع، ونحن ندرك تماماً لماذا تنسب كتب كهذه إلى الإمام جعفر الصادق الذي يعتبر في الأدب الشيعي خير مصدر للعلم اليوناني وخاصة للملوم السحرية ولعلم التنج، أضف إلى هذا كله أن جعفر هذا والد الإمام السابع إسماعيل الذي نص على ظهوره في هذه المؤلفات ويشير للفهرست إلى بعض الشك الذي يحتاج نقرأ من الشيعة الماصرين لأحد أصحابه في حجة نسب هذه الكتب لمؤلفها^(١)، وثمة رجل آخر هو أبو سليمان السجستاني النطقي، يذكر في كتابه «التعليقات» ملاحظة يستنتج منها أنه هو نفسه يبرف المؤلف الحقيقي للكتب التي تنسب لجابر بن حيان، ويسمى أبو سليمان باسم الحسن بن لقناد الموصل، ولكن على رغم هذه الرواية فإننا نعتقد أن مؤلفات جابر لا يمكن أن تكون من إنتاج رجل واحد رغم تطور التفكير المنسجم فيها. ونحن نعتقد كذلك أن هذا التفكير لم يصل إلى هذا الحد الذي وصل إليه إلا في سنة ٣٣٠ هـ.

أحمد زكي صالح

(البقية في العدد القادم)

(١) نص عبارة ابن النديم في الفهرست: «وقال جماعة من أهل العلم وأكابر الرواين إن هذا الرجل يسمي جابراً لا أصل له ولا حقيقة، وبعضهم قال إنه ما صنّف... الخ» ولكن ابن النديم يصف هذا الرأي ولا يأخذ به كما سيأتي بعد.

(١) الأجنوزية Gnosticism هي مذهب ديني فلسفي، يدعي أصحابه أنهم على معرفة تامة وكاملة بطبيعة الله وصفاته.

(٢) م أتباع ناصر بن خسرو، فرقة متكلمة